

قالت الزوجة: الشخصيات تتحدث ببلاهة لا بد أن تبدأ من جديد

الياباني كازو إيشيجورو الفائز بجائزة «صانداي تايمز للتفوق الأدبي» يبوح بإخفاقاته



هالة صلاح الدين

تسلم حامل وسام الإمبراطورية البريطانية الروائي كازو إيشيجورو (59 عاماً) جائزة صانداي تايمز للتفوق الأدبي في مهرجان سلتنهام البريطاني، منضماً إلى ثلثة من المبدعين الحاصلين على الجائزة نفسها كالمسرحي هارولد بنتر والشاعر نيد هيوز. كان من بين نجوم المهرجان المقام برعاية جريدتي "ذا تايمز" و"صانداي تايمز" البريطانية هيلاري مانتل والكندية مارجريت أتوود والبريطاني مارتين أميس.

رمزية غالبية

وشأنه شأن عدد من أبرز كتّاب جيله كسلمان رشدي وبن أوكري يتأرجح إيشيجورو، زميل الجمعية الملكية للادب، بين ثقافتين، اليابانية والإنكليزية. ولد في مدينة ناكازاكي المنكوبة بالقبلة الذرية ثم انتقل في الخامسة من عمره إلى أرض المستعمر، إنكلترا. وبمثل اقتضاب القصيدة وتعقيدها تعيد رواياته تقييم مبادئ الحرب والسلام، ومنها روايته الأشهر "بقايا اليوم" التي نالت جائزة البوكر وتحولت إلى فيلم سينمائي ذائع الصيت. غالباً ما يحجم رواية إيشيجورو عن قول أي شيء بصورة مباشرة. فالرمزية تغلب على نصوصه حتى يُخيل للقارئ أنها لا تطرح أي شيء على الإطلاق، ولكن المعنى الحقيقي يطفو فوق الأحداث ولا يوضح سوى لقارئ بمقدوره أن يستشف ما بين السطور. وعندما نطقن إليه حقاً، سوف تختلط علينا مفاهيم قد نظناها بديهية محسومة، مثل الوطنية والخيانة والولاء.

التصال مع الماضي

لذا يصعب وضع تصور أوحد لرواية "بقايا اليوم"، قد نرثو إليها بوصفها هجوماً على الرضا الزائف عن الذات، على من تكافؤوا لهلاك أمة ليخرجوا في النهاية سالمين بلا عقاب، ولعلها مناشدة لطلب الغفران. يخفق المؤلف -أو ربما لا يرغب- في الإجابة على السؤال الحاسم: كيف يتسنى للفرد أو المجتمع التصالح مع أخطاء الماضي؟

ولأن البطل ما هو إلا كبير خدم تافه الشأن يعمل عند لورد يتورط -عن جهل أو علم- في خيانة بلاده، تستدعي الرواية إلى الأذهان وصف الكاتب المسرحي التشيكي فاتسلاف هافيل للفرد وعلاقته الشائكة بالمجتمع، "إن البشر مرغمون إرغاماً على الحياة في كذبة، إرغاماً لا ينبع سوى من قدرتهم على الحياة بمثل تلك الطريق. وعليه فالنظام ليس هو المتسبب الأوحد في وحشة الإنسانية، فمن يكابدون الإغتراب يدعمون هذا النظام كخطة كبرى لا طواعية لهم فيها، كصورة متفسخة لتفسخهم، كشاهد على فشل البشر في أن يصبحوا أفراداً متفردين".

التذكر والنسيان

استغرق إيشيجورو عقداً في كتابة رواية "العماق المدفون" المتوقع صدورها في العام القادم، فقد اعترف أمام جمهور مهرجان سلتنهام بأن زوجته باحت إليه بأنها "ليست جيدة، من المستحيل أن تواصل على هذا النحو، فالشخصيات

زوجته باحت إليه بأن روايته الجديدة التي يكتبها «ليست جيدة، من المستحيل أن تواصل على هذا النحو، الشخصيات تتحدث ببلاهة، لا بد أن تبدأ من جديد»

”

فوجئ الحضور بإقراره بأنه لم يولع بالقراءة أو الكتابة في مستهل حياته، إذ كان دافعه الأوحد لكتابة رواية «منظر شاحب للتلألؤ» هو إبقاء ذكرياته عن اليابان حية في ذهنه

“

تتحدث ببلاهة. لا بد أن تبدأ من جديد". تنفض أحداث الرواية ببريطانيا في الحقبة الفاصلة بين رحيل الرومان ومستهل العصر الأنجلوسكسوني، وتتعالق وفقاً لدار نشر "فابر أند فابر" مع "الذكريات الضائعة، الحب، الانتقام، الحرب" بينما أعلن المؤلف في المهرجان أن غايته أن تنقل، ولو على سبيل المجاز، إحساس ما بعد الحرب الباردة، "إنها منطقة محايدة. أبحث دوماً عن المناطق المحايدة كي أبرزها في صورة مستنزة". وفي دعاية نادرة من إيشيجورو المحافظ في الغالب قال إنه كتب في التاسعة والثلاثين روايته "من لا عزاء لهم" وهو يخوض "أزمة منتصف العمر" بعد أن أدرك أن الكتاب يحطون أجمل روايتهم قبل سن الأربعين، "مظلم مثل لاعبي الكرة".

إحساس بالذعر

ويعدّها استأنف حامل لقب فارس الفنون والآداب هجوماً نادراً على أعماله ليوصم سيناريوهات السينما الأربعة بأنها سيئة شارحاً أن

السيناريو ينبغي أن يسرد القصة بالمرئيات المتحركة، لا بالذكريات أو الحوار، "ولطالما راقتني الكتابة عن التذكر والنسيان".

بل إن روايته البوليسية "عندما كنا أيتاما" (2000) الفائزة بجائزتي "ويتبريد" و"البوكر" لم تترأ من امتعاضه، فقد جاهر أمام جمهور المهرجان أنها فشلت في رايه فشلاً ذريعاً بالرغم من ولعه بقصص أجاثا كريستي البوليسية ومحاولاته الحثو حذوها. كما فوجئ الحضور بإقراره بأنه لم يولع بالقراءة أو الكتابة في مستهل حياته، إذ كان دافعه الأوحد لكتابة رواية "منظر شاحب للتلألؤ" هو إبقاء ذكرياته عن اليابان حية في ذهنه. تشهد في الرواية قوما يتعافون من دمار القبلة الذرية الواقعة على ناكازاكي، دمار كابتته والدة إيشيجورو. قال للجمهور، "تولاني إحساس بالذعر، وودت أن أحافظ على نسختي من اليابان أمانة، أن أصونها أدبياً".

الخزي والهزيمة

وعلى الغرار نفسه يُقدّم إيشيجورو في رواية "فنان من العالم الطليق" الفائزة بجائزة "ويتبريد" وجائزة "سكانو" الإيطالية نظرة أصيلة إلى اليابان في أعقاب الحرب العالمية الثانية، "عالم طليق" من السلوكيات الثقافية المتغيرة، نماذج اجتماعية طالها التبدل، أسئلة لا تسلم من القلق.

يسلط الضوء عما انتاب اليابانيين من مشاعر حين شنوا حرباً ثم خسروها. سوف نبصر من خلال عين واحدة وحيدة الكبرياء والوطنية، الخزي والهزيمة. إن شأهنا فنان، مُدرّب على الرؤية وإعادة الخلق، لكن الحق أننا لا يسعنا الثقة بما يرسمه من صور تستدعيها ذاكرته هو وحده.

يرسم المؤلف في بعض الأحيان شيئاً أحرق مغروراً، سانجاً بدرجة لا يتصورها عقل، وفي أحيان أخرى نلغاه مفكراً أساءت اليابان معاملته وشوهت صورته عقب الحرب. والواقع أنه يتعذر علينا تحديد إن كان فنه ذا أهمية قصوى لنظام الحكم أم



استغرق إيشيجورو عقداً في كتابة رواية "العماق المدفون" المتوقع صدورها في العام القادم

لحق شعب اليابان من أذى الحرب من جراء تأثير أمثاله، من طوعوا الفن لخدمة السياسة، خسر احتراماً كافح طيلة حياته للفرز به، بل إن تلاميذه تبرأوا من فنه، مرة احتقاراً لما اعتبروه خيانة عظيمة، ومرة خوفاً من تأثير هذا الفن في ظل سيطرة أميركية هيمنت عسكرياً وثقافياً عقب الحرب. بات في النهاية يتفكر في ماضيه ويتأمل دوره في صنع عالم أصبح اليوم نابذاً له.

الواقع أن العجوز -نموذج متكرر في روايات إيشيجورو- ما هو إلا أثر من آثار اليابان القديمة، إنها دولة تترع بصالات الشاي وتحفل بفتيات الجيش وتزدان بدقائق منمقة لم تات الصناعة ولا الفكر الغربي عليها بعد. سوف يجد القارئ الأبطال عاجزين عن التواصل مع من حولهم، غير واثقين من صلاحية أفكار الحرب القومية، وإن

أبوا مقايضتها بقيم غربية حديثة لا تدعم الرية. إن علامات الموت والخراب تلوح فوق روايات إيشيجورو، فوق دولة لا تزال متذبذبة بإزاء معنى الوطنية ما بين جيل ارتضى تكريس قدراته ليحقق أغراضاً توسعية نفعية وجيل يتطلع إلى مستقبل أفضل في ظل السلام.

على الغرار نفسه يقدم إيشيجورو في رواية "فنان من العالم الطليق" الفائزة بجائزة "ويتبريد" وجائزة "سكانو" الإيطالية نظرة أصيلة إلى اليابان في أعقاب الحرب العالمية الثانية، "عالم طليق" من السلوكيات الثقافية المتغيرة

في مدينة محطمة لا تحمل اسماً بعد أن وضعت الحرب أوزارها، تحيط به مشاهد الخسارة، يرتاب فيمن حوله ويرمقهم وكانما يوجهون إليه أصابع الاتهام. تنصرف تأملاته إلى أيام الدراسة المتفائلة، إلى مواقف ملتبسة وخيبة أمل خفف من حدتها إحساسه بوجود نظام سائد أثناء الحرب، نظام توارى أثره بعدها. يتدبر مسيرته المهنية وحدود الولاء بين المعلمين والتلاميذ وقيمة الفن. لا ينفك حاضره ووعيه يستحضران انخراطه في الحملات السياسية لنظام الحكم قبل الحرب.

وعلى مدار الرواية نعي أن البطل يراوده شعور خفي بأنه كان من الخبر له أن يلبث فناناً تقليدياً يرسم حدود العالم الطليق. فنياته الأخلاقية لا تبرر ملصقاته الدعائية. وهنا يستقر فينا المؤلف السؤال: هل ينبغي على الفنان أن يلتزم بمنهج جمالي خالص في الفن أم يتبنى موقفاً اجتماعياً؟

وهكذا على الرغم من صرامة اتصف بها نثر إيشيجورو، صرامة تتناغم مع عدم مرونة فنان كان شهيراً في يوم من الأيام، يستدر فنان العالم الطليق مشاعر الشفقة والرثاء وهو يتنقل بين صفحات رواية تعتبر بمثابة تذكرة وتحذير في آن واحد. نقرأ في الرواية: "هؤلاء من أرسلوا أمثال كينجي إلى الميدان ليموتوا ميتتهم الشجاعة، أين هم اليوم؟ يواصلون حياتهم مثلما اعتادوا طيلة عمرهم والعديد منهم أنجح من ذي قبل، يتصرفون بتدابير أمام الأميركيين، هم عين الأشخاص الذين قادونا إلى الكارثة. ومع ذلك نلبس الحداد على أشباه كينجي. هذا ما يجعلني غاضباً. يموت الشبان الشجعان لأسباب غبية والمجرمون الحقيقيون ما زالوا معنا، يركبهم الخوف من أن يظهروا على حقيقتهم، من أن يعترفوا بمسؤوليتهم".

وأنا متأكد أنه قال عندئذ وهو يمد بصره نحو الظلمة بالخارج: "هذا في رأيي أفدح جبن على الإطلاق".

اليابان القديمة

لقد أرغم العجوز على إعادة النظر في قيمه بعد أن رزح تحت أحمال فقدان، بعد أن تملكه الإحساس بالمسؤولية عمّا

غالباً ما يحجم رواية إيشيجورو عن قول أي شيء بصورة مباشرة، فالرمزية تغلب على نصوصه حتى يخيل للقارئ أنها لا تطرح أي شيء على الإطلاق

“

تراه يعيش خدعة كبرى! أكان وطنياً ضحى بكل غال من أجل شعبه أم فغياً سعى وراء الشهرة مقابل دعاية سياسية رخيصة؟ كتبت الناقدة الأميركية كاثرين مورتن في مجلة "ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو" أن الرواية "تتمدد وعي القارئ لتعلمه أن يقرأ متسلحاً بالمزيد والمزيد من التبصر".

ولا ريب أن إحدى الشخصيات ظلت مُغيبية حتى النهاية حين قالت: "صباط جيش، سياسيون، رجال أعمال، كلهم ليموا على ما جرى لهذا البلد. لكن بالنسبة إلى من هم على شاكلتنا يا أوتو، كان إسهامنا هامشياً على الدوام. لا أحد يكترب الآن لما جاء به أمثالك وأمثالي في يوم من الأيام، فهم ينظرون إلينا ولا يرون سوى عجوزين بعكازين". ابتمسم في وجهي ثم واصل إطعام السمك. "نحن من نأبه الآن ولا أحد غيرنا. ولما يتطلع أمثالنا إلى حياتهم من خلفهم ليفطنوا، إلى أنها قد شابتها النقائص، سوف يجدون أنهم العابثون وحدهم".

الدعاية والإمبريالية

عاش فنان الرواية شبابه ضمن حدود "العالم الطليق"، عالم من المتعة البوهيمية شكل الطابع الجمالي لفن ما قبل الحرب. ولكن رؤيته لدولة يابانية أكثر ضراوة، وتمرده النهائي على معلمه حملاه على تحويل لوحاته إلى حملات دعائية، خادماً بذلك حركات إمبريالية دفعت باليابان إلى أن تكون الحرب. انتهى به الحال إلى أن يعيش

